المشاهدة والمعاينة مصدرًا من مصادر التدوين التاريخي عند المسلمين

د. إبراهيم بن محمد المزيني
قسم التاريخ والحضارة - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعه وسار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد تعددت مصادر تدوين التاريخ عند المسلمين وتنوعت موارده؛ إذ عمد كل مؤرخ إلى استقاء مادته العلمية وأخباره التاريخية من المصادر المتاحة له، وهي مصادر كثيرة تتوزع بين مصادر مباشرة، تتمثل في نقل الخبر حيًا عن طريق المشاركة في الحدث أو مشاهدته أو الوقوف على آثاره ، أو سماعه من ثقات توافرت فيهم شروط الضبط والعدالة، ونسبته إليهم، وذلك ما يطلق عليه بالمشافهة. وكذلك المصادر غير المباشرة كالمصادر المدونة وهي المصادر المكتوبة التي تتفرع أيضًا ، وتنقسم إلى مجموعة من المصادر التي يمكن للمؤرخ أن يستمد المعلومة التاريخية منها سواء تلك المصادر التاريخية المختصة، أم المصادر ذات الصلة، وهي المصادر المساعدة من علوم ومعارف أخرى تثري الرواية التاريخية، وتضيف إليها معلومات ودعائم مهمة.

كما عمد عدد من المؤرخين إلى استقراء الوثائق الخاصة والرسمية، أو الكتابات الأثرية والنقوش، أو البحث في العملات والمسكوكات النقدية وكذلك الآثار المعمارية بصورها المتعددة والقطع الأثرية الموثقة للحصول على المعلومة التاريخية.

والتعرف على المصدر أو المصادر التي اعتمد عليها المؤرخ في تدوين مادته التاريخية أمر مهم يكشف عن مقدار الجهد الذي بذله ذلك المؤرخ، ويكشف أيضًا عن مدى عمق ثقافة المؤرخ وسعة اطلاعه، هذا فضلاً عن كونه أمرًا جوهريًا في تحديد مستوى مصداقية الرواية(١).

وتأتي الدراية الشخصية في مقدمة المصادر التاريخية، وتعدُّ أكثرها وثوقًا لتميزها بالمشاركة في الحدث أو مشاهدته حاضرًا أو معاينة موقع الحدث وآثاره، وهو موضوع هذا الطرح ضمن هذه الدراسة التي تجيء بعنوان: " المشاهدة والمعاينة مصدرًا من مصادر التدوين التاريخي عند المسلمين".

فالشاهد هو المصدر الأول والأساس للمعلومة التاريخية، وعن طريقه تتم عملية نقل المعلومة وتداولها، وهذا يعني هجر المؤرخ للعنعنة والإسناد(٢)، وتركيز عدته في المشاهدة والمعاينة للأحداث ومواقعها لكونه حاضرًا لها معايشًا لزمن وقوعها أو قريبًا منه.

وتظهر قيمة المشاهدة والمعاينة في أن معاصرة المؤرخ لأحداث زمانه تطبع روايته في الغالب بطابع الصدق والدقة ؛ فالمؤرخ الذي يعيش في زمن قريب من زمن الأحداث التي يقوم بتأريخها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصويرها بألوانها الحقيقية؛ ذلك

---

(١) فهد الدامغ. تقي الدين الفاسي ومنهجه في التدوين. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، رسالة دكتوراه غير منشورة. ١٤١٢هـ(١٩٩١م). ص٢٥٧.

(٢) والعنعنة في الحديث فرع من فروع الإسناد، وتعني رواية فلان عن فلان، وعنعن الحديث أي ذكره بـ«عن» من غير بيان للتحديث أو الإخبار أو السماع، ويمكن أن ينطبق ذلك على نقل الأخبار والروايات. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م). تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق وتعليق: أحمد عمر هاشم. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م). ١٧٧/١.

لأن الكتابة التاريخية المعاصرة لزمن الأحداث تعتمد كثيرًا على المعاينة والمشاهدة والسماع من مصادر مباشرة حيّة ؛ إذ إنها تجنّب المؤرخ عادة الأخطاء المتوقعة من النقل المجرد عنها(٣).

وهذه الدراسة تركز على مجموعة من المصادر التاريخية والبلدانية وكتب الرحلات التي اعتمد فيها مؤلفوها على هذه الوسيلة مصدرًا لمعلوماتهم التاريخية والحضارية التي أوردوها ضمن مؤلفاتهم، وقد أفصحوا عنه صراحةً في نقل الأخبار والتعليق عليها. وهذه المصادر تحوي جملة لا يستهان بها من النصوص الجيدة التي وصلت إلينا ممزوجة بذاتية مواردها باعتبار أن عنصر المشاهدة وإبراز الذات من خلالها واضح جدًا وخاصة في زمن معاصرة المؤرخ للأحداث التي يوردها والشخصيات التي يترجم لها، أو حينما يصف الرحالة والبلدانيون البلاد والمواقع التي يمرون بها والمشاهد التي يقفون عليها، فنجد كثيرًا من العبارات والألفاظ المستخدمة لهذا المصدر تتكرر ضمن مؤلفاتهم، ومنها: رأيته، شاهدته، لقيته، اجتمعت به، لازمته، رافقني، حكى لي، قرأت عليه، أنشدني، وقفت على المكان، حضرت جنازته، صليت خلفه، وغير ذلك من عبارات تربط الرواية بذاتية المؤرخ.

وحتى يقترب مفهوم المشاهدة والمعاينة من الذهن يمكن أن نشير هنا إلى ثلاثة مفاهيم متقاربة يتكرر إطلاقها على هذا المصدر وتتقارب مدلولاتها لتمتزج الصورة أحيانًا في صورة واحدة ، وهي:

المشاهدة: التي تعني معاصرة الراوي للحدث وتصويره عن طريق مشاهدة مجرياته أو الرؤية الشخصية له عن قرب، ويمكن أن تقيّد المشاهدة أحياناً بمشاهدة الحدث مباشرة حال وقوعه.

---

(٣) سيد عبد العزيز سالم. التاريخ والمؤرخون العرب. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، (١٩٨١م). ص١٢٤.

ودلالاتها: شاهدت، حضرت، رأيت، لقيته، وهم سائرون، ونحن نشاهدهم. وغير ذلك من عبارات تفيد معنى الرؤية عن قرب والمشاهدة الشخصية بحضور الحدث ومشاهدته.

المشاركة: وتعني حضور الراوي للحدث، والاشتراك في أحداثه ومجرياته.

ودلالاتها: حاصرنا القلعة، اجتمعنا بهم، كنت ضمن الفاتحين، رافقته في حملته ، وقد شددنا عليهم. وغير ذلك من عبارات المشاركة في الأحداث، وربما التأثير فيها.

المعاينة: وتعني في الغالب الوقوف على موقع الحدث بعد حدوثه ومعاينة آثاره ودلالاته أو التأكد من صحة ما ذكر عنه من وصف أو تحديد بالوقف عليه ومعاينة آثاره.

ودلالاتها: وقد وقفت عليه، ومررت به، وقد عايناه أو عاينته، واتفق لي في هذا الموقع ، وهذه الصور تكثر عند الرحالة والبلدانيين ومن يدرس مواقع الأحداث الماضية ومشاهدتها.

وقد تمتزج صورتان أو أكثر من هذه الصور في صورة واحدة فيكون الراوي مشاهدًا للحدث مشاركًا في صنع أحداثه، وقد يكون شاهدًا له واصفًا لما عاينه من أمور فيه.

إلا أنه يغلب أن يطلق مفهوم المشاهدة على من شاهد الأحداث أو المواقع عن قرب ، فسجل رؤيته لها أو وصف صورتها في ذهنه ، فنقلها لنا سواء من المؤرخين المعاصرين للأحداث وربما المشاركين فيها أو من الرّحالة والبلدانيين الذين اعتمدوا في نقل أخبارهم ومعلوماتهم على هذا المصدر.

أما المعاينة فيغلب إطلاقها على معاينة الشيء بعد وقوعه بالوقوف على أطلاله وما نتج عنه من آثار. والمعاينة تكثر في الآثار

والأشكال والمنشآت والظواهر الطبيعية وغيرها مما يتكرر عند البلدانيين والرحالة أو من أراد توثيق معلوماته الشفوية أو المكتوبة بالوقوف على ميادين الأحداث وتسجيل آثارها ومقارنتها مع معلوماته.

ومع ذلك فهما في نهاية الأمر تسجيل للأحداث أو روايتها من واقع مشاهدة الراوي لها سواء مشاهدة حيّة حال وقوع الأحداث أو ربما المشاركة بها أو معاينة لآثارها والوقوف على أطلالها، ومن ذلك جاء إطلاق مصطلح "شاهد عيان".

والمشاهدة والمعاينة وسيلتان مهمتان من وسائل الرصد والتدوين التاريخي، يختلف استخدامهما من شخص لآخر حسب الغرض الذي يستخدم المصدر من أجله، كما يختلف الأشخاص فيما بينهم في تحقيق الدقة والشمول والضبط في استخدام هذا المصدر، ولذلك لا نعجب أن يقف اثنان على حدث ما، أو يشاهدا معلمًا ما، ثم يختلفا في وصفه، وقد يحصل بينهما اختلاف واضح وتباين كبير، وهذا ناتج لوجود مؤثرات خارجية تنعكس على المشاهد أو المعاين فتنساق الرؤية وفقها. ويمكن أن يشار هنا إلى أبرز تلك المؤثرات ومدى تأثيرها على صدق الرؤية وفهم أبعادها، فمن ذلك:

١ - علم المشاهد أو المعاين وتجربته وثقافته.

٢ - عاطفة المشاهد أو الرائي ومدى تأثيرها في نقل الصورة.

٣ - دقة الملاحظة والحرص على تقصي الحقائق، وهو أمر يختلف فيه المشاهدون.

٤ - وجود غايات وأهداف يسعى المدون لاستخدام هذا المصدر دليلاً عليها، ومن ثمَّ تطويع الصورة لتخدم هذه الأغراض.

٥ - التسرع في نقل ظواهر الأشياء دون التأمل، ومحاولة التحليل

واستنتاج الأبعاد أو الأسباب والدوافع وراء هذه الظواهر.

وتعد المشاهدة والمعاينة من المصادر المهمة التي اعتمدها عدد من المؤرخين والرحالة والبلدانيين في تسجيل مروياتهم، وكل منهم له منهجه وطريقته الخاصة في الإفادة من هذا المصدر، فأمدت أخبارهم بمعلومات جيدة وأساسية؛ إذ يعد كثير منهم شاهد عصره في كثير من الأحداث التي عاصرها أو مرّ بها عن قرب ، فجاءت رواياتهم مستوحاة من معاصرة الحدث ومشاهدة مجرياته، وربما المشاركة الشخصية أو المعاينة لآثاره ودلالاته.

ومن ثم فإن المادة التاريخية التي يسجلها أولئك الرواة تأتي من واقع مشاهدات ممتزجة بأحاسيس المؤرخ وانطباعه تجاه الحدث الذي كتب عنه أو الشخصية التي يترجم لها إلا أنه يشار هنا إلى عدم خلو الروايات التاريخية التي تصدر عن هذا الطريق من المبالغات أحيانًا في عرض تفصيلات الحادثة أو أخبار الشخصية التي يترجم لها، وأحيانًا عدم الدقة في تسجيل الملحوظات والانطباعات مما يجعل السامع للرواية التاريخية أوعى في فهمها واستيعابها من المشاهد أو المعاين لها، فتكون رؤيته أدق من الانطباعات المصورة لدى المشاهد المباشر.

ونماذج أولئك المؤرخين كثيرة جدًا يأتي من أبرزهم: محمد بن عمر الواقدي في كتابه "المغازي"، والمسعودي في كتابه "مروج الذهب"، وأسامة بن منقذ في كتاب "الاعتبار"، وابن الجوزي في كتابه "المنتظم"، وأبو الفداء في كتابه "المختصر"، وابن شداد في كتابه "النوادر السلطانية"، والمقريزي في "إغاثة الأمة" وفي "الخطط"، وابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة"، وابن إياس في "بدائع الزهور"، ومؤرخ مكة تقي الدين الفاسي في كتابه "شفاء الغرام"، وكذلك المؤرخ عثمان بن بشر في كتابه "عنوان المجد في تاريخ نجد"، وغير هؤلاء المؤرخين ممن سجلوا كثيرًا من أخبارهم من خلال

مشاهدتهم للأحداث وربما معاصرتهم لها، أو الوقوف على مواقعها. بالإضافة إلى عدد من الرحالة والبلدانيين الذين اعتمدوا هذه الوسيلة مصدرًا لمعلوماتهم يتصدرهم الهروي، وابن جبير، وعبداللطيف البغدادي، وكذا ابن حوقل واليعقوبي وياقوت الحموي وغيرهم من الرحالة المسلمين والبلدانيين الذين سجلوا مشاهداتهم وملحوظاتهم بشكل مفصل وشيق وموثق.

فكان عدد من هؤلاء المؤرخين والرحالة يسجلون الأحداث التي شاهدوها أو كانت معاصرة لهم أو قريبة العهد بهم جدًا، ومؤلفاتهم تلك تعدُّ مصادر أصلية للروايات التي أوردوها أو السير التي ترجموا لها مع أهمية مراعاة قواعد البحث العلمي من حيث نقد المصادر والروايات(٤).

وسيرد هنا عرض تطبيقي مدعم ببعض الأمثلة لاستخدام عدد من المؤرخين والبلدانيين والرحالة لهذا المصدر أداة لتحصيل المعلومات التاريخية وتدوينها. مع التذكير بأنه يمكن أن يجمع المؤلف أكثر من صفة في الوقت نفسه فيمكن أن يكون مؤرخاً أو رحالة وهو في الوقت نفسه المشارك في صنع الأحداث ميدانياً إما مرافقًا أو شاغلاً لأحد المناصب المهمة في الدولة؛ مما يتيح له فرصة الاطلاع على الأحداث عن قرب وتسجيلها بصفة مباشرة.

وباستعراض بعض آثار المؤرخين يظهر لنا حرص هؤلاء على استخدام هذا المصدر لتوكيد معلوماتهم التي نقلوها أو سمعوها مشافهة ، فاصطبغت رواياتهم بأحاسيسهم وانطباعاتهم عن الحدث، وجاءت أكثر واقعية وصدقًا بتأثير المعاصرة للحدث أو مشاهدة مجرياته، وربما المشاركة الشخصية فيه أو على الأقل معاينة المواقع والآثار.

---

(٤) سيدة إسماعيل كاشف. مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه. بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). ص٧٠.

وكان من أبرز هؤلاء المؤرخين الذين برعوا في استخدام هذا المصدر بشكل واضح في تدوين رواياته المؤرخ محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) الذي لم يقتصر في تسجيل الأحداث على مجرد النقل من الكتب ، أو السماع من الرواة، وإنما كان يذهب بنفسه إلى أمكنة الغزوات ومواطن قتل الشهداء من أصحاب الرسول ﷺ؛ ليقف على مواقعها، وكان يقول عن نفسه:" ما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه"(٥).

ويقول أيضًا: " ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء، ولا مولى لهم إلا وسألته: هل سمعت أحدًا من أهلك يخبرك عن مشهده ، وأين قُتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعاينه"(٦).

وهنا تستوقفنا لفظة " أعاينه" التي تدل على منهج من مناهج كتابة التاريخ عند كثير من مؤرخي المسلمين، فهو لا يكتفي بالسؤال والاستخبار؛ ولكنه يمضي إلى أبعد من هذا، فيعمد إلى المعاينة للآثار والوقوف عليها حيث تمتزج المعاينة بالمعرفة، فتكون من ذلك الحقيقة التاريخية التي ينشدها، ولا يخفى ما كانت تكلفه المعاينة والمشاهدة من معاناة(٧).

وتدلنا هذه الرغبة عند المؤرخ الواقدي على سلامة نظرته النقدية واستحضاره المادي للمواقع، وهذا يعني كسبًا غاليًا لمصادر جديدة، وحجج حاضرة لم تكن تتاح له لولا هذا الاستحضار المادي

---

(٥) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد. (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م). المغازي. تحقيق مارسدن جونس، بيروت: د.ت. المقدمة. ص٦.

(٦) الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي. (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م). تاريخ بغداد - القاهرة (١٩٣١م). ٣/٦.

(٧) عبد العليم عبد الرحمن خضر. المسلمون وكتابة التاريخ، هيرندن (فيرجينيا): المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٤هـ (١٩٩٣م). ص٢١١-٢١٢.

للمواقع. إلا أنه لا يعني ذلك أن كل المؤرخين المسلمين الأوائل كانوا على مذهب الواقدي في اهتمامه بهذا المصدر، فربما اكتفى أكثرهم بالسؤال والاستخبار، واستغنى بهما عن المشاهدة(٨).

ومن خلال كتابات كثير من المؤرخين يظهر لنا حرص هؤلاء على هذا المصدر، وعدم الاعتماد على النقل والسماع، بل توكيد ذلك بالمشاهدة والاطلاع، فكانوا كما يقول المؤرخ المسعودي صاحب "مروج الذهب" (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) عن نفسه: "تارة على متن البحر، وتارة على ظهر البر مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة" (٩).

ولشدة نهم المسعودي بالعلم وحبه للمعرفة لم يكتف بالاطلاع الواسع على ما كُتب وأُلف؛ ولكنه أراد أن يقرن ذلك بالمعاينة المباشرة والمشاهدة الحاضرة ، فساق قدمه في كل أفق(١٠). ولا يستوي في نظر المسعودي من اقتصر على ما في بلده من العلوم والمعارف ومن جاب الأقطار وضرب في الآفاق لهذه الغاية؛ إذ يقول: " وليس من لزم جمرات وطنه، وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه ، وأثار كل نفيس من مكمنه"(١١). ولهذا فإنه يثني ثناءً عَطِرًا على أبي بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) الذي ألّف كتاباً في أخبار خلفاء بني العباس

---

(٨) محمد عبد الغني حسن. التاريخ عند المسلمين. القاهرة، دار المعارف، (١٩٧٧م). ص٥٤.

(٩) المسعودي: علي بن الحسين بن علي بن عبد الله. (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ٤، القاهرة: (١٣٨٤هـ). ١/١٠.

(١٠) شاكر مصطفى. التاريخ والمؤرخون العرب. بيروت: دار العلم للملايين، ط٢، (١٩٧٩م). ١/٤٠٤-٥٠٤.

(١١) المروج: ١/٢١.

ووزرائهم وأشعارهم، وأشار إلى أنه " ذكر غرائب لم تقع لغيره، وأشياء تفرّد بها ؛ لأنه شاهدها بنفسه"(١٢) ، وفي المقابل فإنه عاب على الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) أنه "لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار، ولا قرى الممالك والأمصار، وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين"(١٣). فكان يناقشه في بعض المعلومات والمعارف الجغرافية التي ذكرها الجاحظ غير معتمد رؤية، ولا متوثق من خبر، ويسجلها كأنها مسلمات(١٤).

وضمن هذا المصدر أيضًا ينتقد المسعودي سنان بن ثابت بن قرة (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) في أنه ألف كتابًا خرج فيه " إلى أخبار يزعم أنها صحت عنده ، ولم يشاهدها"(١٥).

ويذهب المسعودي إلى أبعد من ذلك ؛ إذ يعتقد أن من أولى المهام التي يجب على المؤرخ أن يلتزم بها ويطبقها ألا يكتب عن شيء إلا إذا كان قد خبره بنفسه وشاهده حسًا إذا كان باستطاعته ذلك، وإلا تركه لمن يستطيع، ولهذا فقد طاف الآفاق بنفسه واستنتج من مشاهداته، فهو من أولئك المؤرخين الذين اتخذوا الأسفار منبعًا ورافدًا يمد صاحبه بالعلم العملي والمعرفة الصحيحة الواقعية(١٦).

ولذا يمكن أن نقول: إن المسعودي يعد من أوائل المؤرخين الذين اعتمدوا في كتابة أخبارهم على منهج المشاهدة والملاحظة، فكانت معلوماته مبنية على المعاينة والوقوف على مواقع الأحداث

---

(١٢) المروج: ١/١٥.

(١٣) المروج: ١/٩٩.

(١٤) عبد العليم خضر. مرجع سابق. ص٢١٢.

(١٥) المروج: ١/١٧.

(١٦) سليمان السويكت. منهج المسعودي في كتابة التاريخ. د. م. ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م). ص١٥٨.

وميادينها؛ ولذا جاءت أخباره تنبض بالحيوية، وتتصف بالواقعية، وتبعد عن الخيال أو إضافات الرواة وتحريفهم للواقع(١٧). وإن كان المسعودي من أولئك الذين امتزج لديهم أكثر من تخصص في شخص واحد فهو المؤرخ والجغرافي والرحالة، وقد اكتسب شهرته من هذه الأمور جميعًا.

إن المسعودي يعد من أوائل المؤرخين الذين اعتمدوا في كتابة أخبارهم على منهج المشاهدة والملاحظة

ويأتي من ضمن هؤلاء المؤرخين العلّامة ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) الذي ظهرت في كتابه "المنتظم" منذ العقد الثاني من القرن السادس الهجري كثير من الروايات للأحداث التي عاصرها، وخاصة في العاصمة بغداد، وجاءت أخباره عنها ميدانية في معظمها، أفادنا من خلالها في معرفة خطط المدينة وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية وغيرها.

وكان وصفه لها في الغالب وصفًا دقيقًا مع حرصه على إبراز الخلفية التاريخية لعصره، والجهد الشخصي الذي بذله كان كبيرًا، امتد من عام ٥١٤هـ (١١٢٠م) حتى عام ٥٧٤هـ (١١٧٨م)، وملحوظاته الشخصية سواء في الحوادث أو التراجم ذات قيمة تاريخية عالية.

وكانت تسترعي انتباهه بعض الحوادث الجارية كوفيات بعض العلماء ورجال الدولة، وتعرض البلاد إلى كوارث طبيعية فيرصدها بقوله: "لم نر"، أو "لم أر" ، وهذا من باب المقارنات بين الحوادث السابقة واللاحقة. كما نجده يستخدم عبارات كثيرة مثل: "رأيت،

---

(١٧) علي حسني الخربطلي. الاتجاهات العلمية والإنسانية في فكر المسعودي. مجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع ٧ ، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). ص ٢٥.

وخرجت، وجئت"، ونحو ذلك تعبيرًا عن معايشته الحوادث التي يتحدث عنها ومشاركته أحيانًا في بعضها(١٨).

وتتكرر صور هذا المنهج لدى المؤرخ شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٦م)، وذلك في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية"، وهو الذي ولد ولم يكن قد انقضى على وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي أكثر من عشر سنوات، فكانت ذكرى الرجلين (نور الدين محمود بن زنكي، وصلاح الدين الأيوبي) لا تزال حية في الأذهان والنفوس، فأفرد للدولتين الزنكية والأيوبية هذا الكتاب الذي سطّر فيه سيرتهما والأحداث، المعاصرة لهما بنقل مباشر من أفواه المعاصرين للأحداث، وربما المشاركين فيها.

من ذلك روايته عن شاهد عيان ما جرى من القتل في معركة حطين بقوله: "فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل "(١٩)، وبعد ذلك يقول عن شاهد عيان أيضًا : "وعبرت بها فألفيتها محل الاعتبار، وشاهدت ما فعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خبرًا من الأخبار "(٢٠).

وحقيقة أنه حينما تتكرر روايات المؤرخ المعتمدة على المشاهدة أو المشاركة في الأحداث فإن ذلك يعدّ تميزًا وأصالة في مؤلفه، وهو أمر واضح عند المؤرخ أبي الفداء صاحب حماة (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) في كتابه "المختصر في أخبار البشر"؛ فقد شارك

---

(١٨) حسن عيسى علي الحكيم. كتاب المنتظم لابن الجوزي. دراسة في منهجه وموارده وأهميته. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م). ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

(١٩) أبو شامة: شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي. (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. بيروت: دار الجيل، د. ت. ص٧٨.

(٢٠) المصدر نفسه. ص٧٨.

أبو الفداء مشاركة قوية في جهاد الدولة المملوكية ضد الصليبيين، وكذلك ضد المغول، بالإضافة إلى ما قام به من رحلات متعددة إلى كل من الحجاز ومصر، كل ذلك أتاح له فرصة المشاهدة والمعاينة والملاحظة الدقيقة والوقوف على كثير من الحقائق؛ مما كان له أثر بارز في كتاباته، فسجلها لنا وفق هذا المصدر(٢١).

وأبو الفداء يعد من المؤرخين رجال الدولة الذين تولوا مناصب سياسية وعسكرية، وكتبوا التاريخ باعتبارهم ممن شاركوا في صنع أحداثه، وكانوا شواهد عيان للأحداث التي عاصروها ، وأوردوا أخبارها ضمن مؤلفاتهم، فجاءت كتاباتهم عالية القيمة تحوي قدرًا كبيرًا من الأصالة والخبرة(٢٢).

كما أن من أهم ما يلفت النظر في كتابات المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) في مؤلفه الضخم "تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام" هو أن الذهبي يقطع سياق الرواية التاريخية أحيانًا؛ لكي يسوق لنا تفسيره الخاص أو رؤيته للحادثة التاريخية، وقد أبدع الذهبي في ذلك استنادًا على معايشته لكثير من الأحداث التي عاصرها(٢٣).

وممن برز في استخدامه هذا المصدر أيضًا العلامة شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م) وذلك ضمن كتابه الشامل: "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" ؛ إذ

---

(٢١) عبد الله بن محمد النايل. الملك المؤيد أبو الفداء صاحب حماة : جهوده السياسية والعلمية. ٦٧٢-٧٣٢هـ/١٢٧٣-١٣٣١م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض:١٤١١هـ. ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢٢) قاسم عبده قاسم. الرؤية الحضارية للتاريخ: قراءة في التراث التاريخي العربي. ط٢، دار المعارف، القاهرة (١٩٨٥م). ص ١١٩.

(٢٣) المرجع السابق. ص ١٧٧.

تحدث في مقدمته عن مصادره ؛ فذكر أنه اعتمد على المشاهدة أو الدراية الشخصية وعلى النقل عن شهود العيان أو المصادر الشفوية(٢٤)، وابن فضل الله العمري يعدّ أنموذجًا لرجل الإدارة المؤرخ أو ممن يسمون بأرباب الأقلام ؛ إذ تقلب في وظائف عدة في الجهاز الإداري لدولة سلاطين المماليك؛ إذ عمل في القضاء فترة من الزمان، ثم خلف أباه في رئاسة ديوان الإنشاء، الأمر الذي مكنه من الاطلاع على الحوادث عن قرب والوقوف عليها حاضرًا، فجاءت كتاباته ذات قيمة تاريخية عالية.

وتشير سيدة كاشف إلى أن الجزء الثمين من كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر" للعلامة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) الذي يعدُّ من المصادر الأصلية إنما هو القسم الخاص بتاريخ البربر والأسرات الحاكمة في شمال إفريقية، وهو القسم الذي يمتاز بالشمول والعمق والدقة والأحكام الصائبة ، وقد رفع صاحبه إلى المرتبة الأولى بين المؤرخين باعتبار معاصرته وخبراته الشخصية(٢٥).

ومؤرخ مكة تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م) دوَّن غالب المعلومات التاريخية الواردة في مصادره عن طريق المشاهدة والمشاركة وخاصة تلك الأحداث المعاصرة له، فقد أخذ يسجل كل ما يدور في مجتمعه من حوادث منذ أن بلغ من العمر ما يمكنه من إدراك ذلك، واستمر في ذلك حتى قبيل وفاته، وهي معلومات كبيرة الحجم عالية القيمة؛ لأنها كتابة شاهد عيان رآها، ودوّنها بنفسه. ورواية شاهد العيان لها قيمة كبيرة عند المؤرخين خاصة إذا كان هذا الشاهد يتمتع بالأمانة والدقة والموضوعية. والفاسي مؤرخ تتوافر فيه كل هذه الصفات فهو محدث حافظ وفقيه

---

(٢٤) قاسم عبده قاسم. مرجع سابق. ص ١٤٦.

(٢٥) سيدة كاشف. مرجع سابق. ص٧٢.

قاض فيه دقة المحدثين وتحرزهم في نقل الأخبار وتدوينها، وفيه أيضًا فطنة الفقهاء وعدالة القضاة(٢٦).

ويشير الدامغ إلى أن مجمل المعلومات التاريخية التي دوّنها الفاسي في عصره يجد فيها القارئ تصريحًا لهذا المصدر في مواضع كثيرة من كتبه مثل قوله: "شاهدت " أو "رأيت" أو "شاهدنا" ، وغيرها من العبارات الصريحة، وأحيانًا غير الصريحة التي تفيد المشاهدة المعاصرة للأحداث والصلة المباشرة بالحوادث والشخصيات(٢٧).

وهذا المصدر وإن وجد مثيله عند عدد من المؤرخين إلا أنه عند المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) يعدّ فريداً من نوعه مهمًا في موضوعه، فقد حذق فيه المقريزي من خلال تصوير الحياة العامة في مجتمعه بشتى جوانبها بصورة بديعة لم يسبق إليها من قبل، فقد أبدع في إماطة اللثام عن أسباب المجاعة والطاعون الذي تفشى في مصر في عصره، فتناول هذه الأسباب في كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" بواقعية تختلف عن معالجته لأسباب الآفات السابقة على عصره.

أبدع المقريزي في إماطة اللثام عن أسباب المجاعة والطاعون الذي تفشى في مصر في عصره

وهذا الكتاب رسالة لطيفة الحجم، فرغ المقريزي من تأليفها في المحرم سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥م) على إثر المجاعات والكوارث الاقتصادية التي لحقت بمصر فيما بين عامي (٧٩٦ و ٨٠٨هـ) عارضًا من خلالها لما حلّ بمصر من غلاء، وما ترتب عليه من مجاعات أو " كوارث مجيحة " فيما قبل نشوء الإسلام وبعده حتى سنة ثمان وثمانمئة للهجرة، محصيًا منها ستًا وعشرين حادثة،

---

(٢٦) فهد الدامغ. مرجع سابق. ص٢٨١-٢٨٢.

(٢٧) المرجع نفسه. ص٢٨٢.

خصّ مصر الإسلامية منها بعشرين حادثة، وقد أورد تعليلات لهذه المحن بأسباب طبيعية؛ منها قصور جري النيل في مصر، وعدم نزول المطر في الشام والعراق والحجاز، وما يصيب الغلال من الآفات والرياح وغيرها، وأسباب غير طبيعية تختص بإدارة البلاد وتدبير أمورها(٢٨).

وقد صرح المقريزي في استخدامه هذا المصدر ضمن حديثه عن مصادر مؤلفاته بقوله: "... فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء وهي: النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته. فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم فإني أعزو كل نقل إلى الكتاب الذي نقلته منه، لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته... ، وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فإني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثني إلا ألا يحتاج إلى تعيينه، أو أكون قد نسيته، وقلّ ما يتفق مثل ذلك. وأما ما شاهدته فإني أرجو أن أكون ـ ولله الحمد ـ غير متهم ولا ظنين..."(٢٩).

كما يتكشف هذا المصدر بصورة صريحة عند المقريزي في كتابه "الخطط" ، وهو يتحدث عن أحد المواقع في القاهرة بقوله:" وقد شاركت في إثباته عدة حواس، منها: البصر، والسمع، والشم، فضلاً عن رهافة الحس، وحسن الاستنباط ". كما وضح المقريزي هذا المصدر بشكل صريح أيضًا في خططه في وصف مجموعة مواقع ، منها: بركة قرموط، وسور القاهرة، وقصر الزمرد، ووكالة قوصون، وفي كوم الريش وقرية الخندق وبركة الحبش، وغيرها كثير مما

---

(٢٨) محمد كمال الدين عز الدين علي. أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة، سلسلة تاريخ المصريين (٥٣). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٢م). ص١٨١.

(٢٩) قاسم عبده قاسم: مرجع سابق. ص ٢٣٩.

أبدع المقريزي في وصفه، وكأن القارئ يشاهد هذه المواقع عن قرب(٣٠).

كما تأكد هذا المصدر عند ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) في كتابه: "إنباء الغمر بأنباء العمر"؛ إذ أدرك قيمته فاندفع يلح في الإشارة إليه بألفاظ متعددة دالة على المعاصرة مؤكدة مشاهدته للأحداث التي يرويها وأحيانًا مشاركته لها رابطة بينها وبين ذاتية المصادر(٣١).

ويسجل من نماذج أولئك المؤرخين المؤرخ أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) الذي اعتمد هذا المصدر مصدرًا من مصادر معلوماته في كتابه الشهير "بدائع الزهور في وقائع الدهور"؛ فهو يصرّح بأن مصادره ما نقل من كتب المؤرخين السابقين ، وهو مصدر شائع بين المؤرخين، أو نقل من الروايات الشفوية التي سمعها من شهود عيان أو ما رآه أو سمعه بنفسه من أحداث عصره(٣٢).

ونجد لدى ابن إياس تفصيلات كثيرة لحوادث دخول العثمانيين إلى مصر سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م)؛ لأنه كان معاصرًا لهذه الأحداث، وكان شاهد عيان لهذه الحملة(٣٣).

وضمن هذا المصدر تأتي كتابة المؤرخ لتاريخ عصره أو الكتابة في سير معاصريه من السلاطين والعلماء وغيرهم، وهو المنهج الذي

---

(٣٠) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي. (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ "الخطط المقريزية"، بيروت: دار صادر، د.ت، ١٦٤/٢، ٣٧٧/١، ٤٠٥/١، ٩٣/٢، ١٣٨، ١٥٢/٢.

(٣١) محمد كمال الدين عز الدين علي. التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني. بيروت: دار اقرأ، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م). ص ٥٢.

(٣٢) المرجع السابق. ص٢٢٢.

(٣٣) عبدالعليم خضر. مرجع سابق. ص١٩٤.

يسمى عند المؤرخين بالتاريخ المعاصر والمذكرات؛ إذ يعمد هؤلاء المؤرخون إلى تسجيل حوادثهم اليومية لحظة بلحظة اعتمادًا على مشاهدتهم الأحداث ومشاركتهم في كثير من لحظاتها. وكان غالب المعتمدين هذا الأسلوب يشغلون مناصب إدارية كبيرة في الدولة مما يجعلهم قريبين من الأحداث متتبعين للحظاتها(٣٤). وكان المورد الأساس لمثل هذه الكتب هو الملاحظة الشخصية التي كان المؤرخون يرونها وفق مشاهداتهم للأحداث عن قرب، أو الاتصال الشخصي بالمترجم لهم والقرب منهم والتتبع الحركي لهم.

وهذه المؤلفات عني فيها مؤلفوها بأحداث عصرهم، وكان أسلوب تأليفهم يشبه إلى حد كبير أسلوب الصحفيين المحدثين في جمع المعلومات، فكانوا يتصلون بالأعلام المعاصرين وبرجال الجيش والإدارة، ويسمعون منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة، وكان بعض هؤلاء المؤلفين ممن اشتركوا في الحروب أو عملوا في الدواوين أو شغلوا مناصب رئيسة في الدولة ، فكان اعتمادهم يتركز على اتصالهم بالرجال وبالأحداث نفسها(٣٥).

وممن عاصر أحداث الحروب الصليبية، وكتب عنها بأسلوب المذكرات أبو المظفر مُؤيِّد الدّولة أُسامة بن مُرشِد بن علي بن منقذ الشَيُزري (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)(٣٦) في كتابه: "الاعتبار" الذي يعبّر بحق عن الخبرات الشخصية لأسامة بن منقذ التي تبين أنه مؤرخ دقيق الملاحظة وذو شخصية إنسانية فذّة، وهذا الكتاب قلَّ أن يُوجد ما يشابهه من كتب التاريخ المتبعة لهذا المنهج في ذلك العهد؛ إذ يضعنا فيه ابن منقذ أمام مذكرات في الواقع الذي كان يعيشه

---

(٣٤) فرانز روزنثال. علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة صالح أحمد العلي. ط٢ ، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). ص٢٣٧.

(٣٥) سيدة كاشف. مرجع سابق. ص٧٠.

(٣٦) سيد عبد العزيز سالم. التاريخ والمؤرخون العرب. ص١٢٤، ١٢٦.

متضمنًا خلاصة تجاربه، وما صادفه في حياته من حوادث، وتعكس صور الحياة في ذلك العصر من حروب وفروسية وملامح من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي.

ويشير محمد مؤنس عوض إلى أن أسامة بن منقذ قد أفاد من مشاهداته في كثير من المواقع التي مر بها ؛ إذ إنه يعد شاهد عيان لكثير من الأحداث التي أوردها في كتابه "الاعتبار"، وبخاصة عن بلاد الشام مما يعطي رواياته ميزة خاصة(٣٧).

لذا فإنه لا تكاد تمر بنا معلومة من معلومات كتابه "الاعتبار" دونما يشير فيها إلى عبارة من عبارات المشاهدة والمعاينة كقوله: "ولقد شهدتهما"، و"شاهدته"، و"شهدت يومًا"، و"شاهدت من لطف الله تعالى"، و"رأيت ذلك"، و"وقفت على هذا"، وغير هذه العبارات التي تكررت في كتابه(٣٨).

ومن هؤلاء المؤرخ العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) في كتابيه: " البرق الشامي" و" الفتح القسي في الفتح القدسي" اللذين يتميزان بأنهما حديث من شاهد الأحداث بنفسه، أو وقف عليها أثناء عمله الرسمي في ديوان الإنشاء، فجاءت أخباره فيهما أولية ومهمة لا يمكن وصفها إلا أنها تصوير حي للأحداث التي مرت به.

فـ "البرق الشامي" كتاب أشبه بالمذكرات الشخصية؛ لأنه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع نور

---

(٣٧) محمد مؤنس عوض. الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ص ٢٤٨.

(٣٨) ابن منقذ: أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد. (٥٨٤هـ/١١٨٨م). كتاب الاعتبار. تحقيق: قاسم السامرائي. الرياض: دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م). ص ٧٨، ٨١، ٩٧، ١٠٢، ٢٠٠، ٤١١ .

الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي وتاريخ دولتيهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام. وقد اختصر البنداري هذا الكتاب في مجلدتين؛ طُبِعت الأولى منهما تحت عنوان "سناء البرق الشامي" في بيروت سَنة (١٩٧١م) بتحقيق رمضان ششن(٣٩).

أما الكتاب الآخر فهو "الفتح القسّي في الفتح القدسي"، وقد أرّخ فيه العماد لفتوحات صلاح الدين الأيوبي من أول سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) إلى أواسط سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م)، وقد طُبِعَ هذا الكتاب مرات عديدة؛ كان أولها في ليدن سنة (١٨٨٨م)، ثم طُبِعَ بعدها في مصر ثلاث مرات(٤٠).

وقد عبر المؤرخ ابن شداد صاحب كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" عن هذا المنهج صراحة في كتابته عن السلطان صلاح الدين الأيوبي ؛ إذ قال: " وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ أن رأيته وحبه للجهاد ، فأحببته لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وهو يوم دخوله الساحل، وجميع ما حكيته قبل إنما هو روائي عمن أثق به ممن شاهده، ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقرب العيان"(٤١).

ومن الكتب التاريخية التي التزمت أسلوب المذكرات كتاب "النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية" لعمارة اليمني (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م)، ومنها أيضًا كتاب " البيان والتبيين" و "مذكرات الأمير عبدالله بن بلقين" صاحب غرناطة، ومنها كتاب "أخبار المهدي

---

(٣٩) شاكر مصطفى. التاريخ العربي والمؤرخون. ٢/٢٤٧.

(٤٠) شاكر مصطفى. المرجع نفسه. ٢/٢٤٧.

(٤١) ابن شداد: يوسف بن رافع بن تميم الأسدي أبو المحاسن بهاء الدين. (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، (١٩٦٤م). ص ٨٧.

بن تومرت" لأبي بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، الذي كان رفيقًا لابن تومرت في كثير من رحلاته، واصفًا مشاهداته معه، ومنها مجموعة رسائل ابن الخطيب في بلاد المغرب، وقد سجل فيها مشاهداته في هذه البلاد، ومنها المذكرات اليومية للقاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني (ت ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) كاتب السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهي يوميات لها اعتبارها في الدراسات التاريخية(٤٢).

إلا أنه يشار هنا إلى أنّ المؤرخ المعاصر للحدث المشاهد له من الضرورة أن تتوافر فيه شروط الضبط والثقة فيما يرويه؛ فالمعاصرة سلاح ذو حدين فيمكن الإفادة منها في توثيق الأحداث، ويمكن أن تجعل المؤرخ يجانب الواقع مجاملة لمن يكتب عنه، أو تحاملاً على آخر. وقد ذكر سيد عبد العزيز سالم أنه كما أن للمعاصرة فضلاً في الكشف عن الحقيقة التاريخية فإنها تكون في بعض الأحيان حجابًا يمنع المؤرخ عن تصوير الحقيقة بأي سبب من الأسباب(٤٣).

> **المعاصرة سلاح ذو حدين فيمكن الإفادة منها في توثيق الأحداث، ويمكن أن تجعل المؤرخ يجانب الواقع مجاملة لمن يكتب عنه، أو تحاملاً على آخر**

أما الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة فإنها تُعدُّ من أهم وسائل المعرفة البلدانية؛ إذ اشتهر كثير من العلماء المسلمين مثل ابن حَوْقَل، والمسعُوديّ، والمقدِسِيَ، والإدرِيْسي، وابن جُبَيْر، وابن بَطّوطة برحلاتهم الطويلة التي أثروا بها مختلف المعارف، وقد فاق المسلمون في ميدان الرّحلة غيرهم من الشعوب، وساعد على قيام هذه الرّحلات الإسلامية أمور عديدة، منها اتساع رقعة الدولة الإسلامية

---

(٤٢) سيد عبد العزيز سالم. مرجع سابق. ص ١٢٦-١٢٧.

(٤٣) المرجع نفسه. ص١٢٥.

بعد الفتوحات، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة في سائر أقطار العالم الإسلامي، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب، أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله، أو القيام بمهمّة كأن يكون الرّحالة سفيرًا للخليفة أو السلطان أو غير ذلك من الأغراض المعينة على السفر والترحال(٤٤).

وكان معظم الرّحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم، وتسجيل أخبار رحلاتهم وأسفارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، كما كانوا يصفون المدن التي يمّرون بها، ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يمرُّ بها(٤٥).

فكانت تلك الرحلات وما تقدمه من معلومات مبنيَّة على المشاهدة والاطلاع من أبرز عوامل تقدم وتطور كثير من المعلومات والمعارف عند المسلمين.

وهؤلاء الرحالة لهم أسلوبهم الخاص في عرض ما يمر بهم أو يصادفونه في رحلاتهم؛ ولهذا فإن كتب الرحالة تنفرد بأهمية تاريخية خاصة إذا سجل فيها مؤلفوها ما يصادفونه خلال تجوالهم وارتحالهم بصدق وموضوعية.

وهو مصدر مباشر إذا ما استمد الرحّالة معلوماتهم من مشاهداتهم ومعايناتهم للأحداث والمواقع على طبيعتها، ورصد كل ما يحصل لهم من تجارب وملحوظات خلال تلك الأسفار(٤٦).

---

(٤٤) سيد عبد العزيز سالم. مرجع سابق. ص٢١١.

(٤٥) المرجع نفسه. ص٢١٣-٢١٤.

(٤٦) السويكت، مرجع سابق. ص ١٥٥.

وتشكل المعلومات التي يحصل عليها المرتحلون عن طريق المعاينة المباشرة والمشاهدة والتجربة جانبًا مهمًا من المعارف الفريدة الجديدة التي لم يُسبق إليها هؤلاء من قبل؛ فقد ساعدت تلك الرحلات على تكوين ملكة الملاحظة والنقد والمقارنة والنظرة الشاملة، فتجيء الملحوظات والأحكام النقدية التي يطلقها المرتحلون سديدة وصائبة في أغلب الأحيان، كما حصل لدى المسعودي الذي أبدع في هذا الجانب، وكان من المؤرخين الأوائل الذين أدخلوا هذا النوع من المصادر في مؤلفاتهم ، واعتمدوا عليه في تدوين أخبارهم(٤٧).

وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم وتسجيل أخبار رحلاتهم وأسفارهم والمسالك والطرق التي ساروا فيها، والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، ويصفون المدن التي نزلوها، ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم وصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي مروا بها، ولعل ذلك يوضح لنا الفارق بين الجغرافي والرحالة، فالرحالة يعتمد على المشاهدة والمعاينة، ولذلك فإن كتابه لا يتجاوز وصف ما شاهده في أثناء رحلته، أما الجغرافي فيعمل على تغطية كل الإقليم الذي يتناوله بالبحث، فيسأل ويستقصي، ويجمع المعلومات من الحجاج وطلبة العلم والمغامرين والتجار والملاحين، وليس من الضروري أن يكون الجغرافي رحالة(٤٨).

وكان من أبرز هؤلاء الرحالة:

١- الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوي (ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م).

الذي سجل أخبار رحلاته وتجواله في عدد من البلاد الإسلامية التي زارها في كتابه المشهور "سفر نامه".

---

(٤٧) السويكت، مرجع سابق. ص ١٥٦.

(٤٨) سيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق. ص٢١٣ ـ ٢١٤.

وقد بدأ ناصر خسرو رحلته من مرو سنة ٤٣٧هـ (١٠٤٥م)؛ إذ توجه إلى مصر ، فأقام بها أكثر من ثلاث سنوات ، عاد بعدها إلى بلخ عن طريق الحجاز، ومرّ خلالها بعددٍ من بلدان الجزيرة العربية كالأفلاج والأحساء، واستمر في رحلته حتّى نهايتها بوصوله بلخ في جمادى الآخرة ٤٤٤هـ (أكتوبر سنة ١٠٥٢م)(٤٩).

ولقد سجّل ناصر خسرو أخبار هذه الرحلة وحوادثها يومًا بعد يوم، وذلك بعد عودته إلى خراسان، ودوّن فيها مشاهداته في البلاد التي زارها في طريقه إلى مصر وإلى مكة وأثناء عودته إلى بلخ، وتعبّر ملحوظاته عن فهم عميق بحياة الشعوب وإدراك كامل لمظاهر الحضارة فيها. ولهذا السبب يعدُّ هذا الكتاب مصدرًا مهمًا للمشرق الإسلامي قبيل الغزو الصليبي(٥٠).

٢ - أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي (ت ٦١١هـ/١٢١٥م).

وهو أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهَروِيّ الموصلي (ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م) الذي قضى معظم حياته في التجوال والرحلات حتى لقب بالسَائِح، وأبو الحسن الهروي أصله من هَرَاة - إحدى مدن خراسان - ولكنه وُلد بالموصل، ومنها انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، واليمن، والحجاز، ومصر، وبلاد الروم، وبعض جُزر البحر المتوسط مثل صِقِلِّيَّة، وقد تنقَّل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة، وتكلّم عن مشاهدها ومساجدها، وخالط أهلها، والتقى بالعلماء ، وأخذ عنهم، ولم يكن في تجواله مقتصرًا على طلب العلم فقط بل إنه وثّق علاقاته مع عددّ من الجغرافيين المعروفين في عصره(٥١) قال عنه

---

(٤٩) محمد محمود محمدين. التراث الجغرافي الإسلامي. الرياض: دار العلوم. ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م). ص١٤٧ - ١٥٥.

(٥٠) سيد عبدالعزيز سالم. مرجع سابق، ص٢١٧ - ٢١٨.

(٥١) كراتشكوفسكي (أغناطيوس يوليانوفتش). تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين هاشم، ط القاهرة: (١٩٦١م)، ق١. ص٣٢٠-٣٢١.

ابن خلكان: "طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكان يُطَبّق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك برًا ولا بحرًا ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه ، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها"(٥٢).

وكتابه هذا هو الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من مؤلفاته، وقد سجّل فيه مشاهداته وملحوظاته، كما سجّل فيه المزارات والمساجد التي زارها وشاهدها في رحلته، ويؤخذ عليه بعض المبالغات، وإيراد القصص الخرافية والأساطير(٥٣).

٣ - عبداللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ/١٢٣١م).

وهو الطبيب الرّحالة موفق الدين عبداللطيف بن يوسف بن محمد المعروف بابن اللبّاد، موصلي الأصل بغدادي المولد والوفاة، كان مشهورًا بالعلم والفضل ، ولد في بغداد سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م)، ونشأ في أسرة علم وصلاح، ثم ارتحل إلى أقطار كثيرة، وكثرت تصانيفه في فروع العلم المختلفة ، ومن أبرزها كتب في الطب(٥٤) ، وكان منها في هذا المقام كتاب سجّل فيه مشاهداته في أرض مصر أسماه:"الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" ؛ إذ تضمن هذا الكتاب تسجيلاً دقيقًا لمشاهداته في مصر التي زارها مرتين، واشتغل بالتدريس في جامعها الأزهر وهو دقيق الملاحظة، فدوّن ملحوظاته ومشاهداته بصورة توحي بالفطنة والحس التاريخي القوي، ووصف حال الآثار المصرية القديمة وصفًا عجيباً لا

---

(٥٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان. ٣/٣٤٦.

(٥٣) سيد عبدالعزيز سالم. المرجع نفسه. ص٢١٨.

(٥٤) أبن أبي أصيبعة: أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. شرح وتحقيق: نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م). ص٦٨٣-٦٩١.

يمكن أن يصدر إلا من مثل عقليته ومنهجه العلمي الدقيق(٥٥)؛ إذ يمتاز وصفه لمشاهداته بمصر بالدقة العلمية، والاهتمام بالنواحي الاجتماعية والعمرانية، وتفهم للأمور ومجريات الأحداث التي وقف عليها(٥٦).

ويمثل هؤلاء الرحالة الثلاثة السابقين جانب الرحالة المشارقة. أما الرحالة المغاربة فكان من أبرزهم:

١- الرحالة الأندلسي ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

صاحب كتاب: "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، المعروف "برحلة ابن جبير" ، وقد رحل ابن جبير إلى المشرق الإسلامي ثلاث رحلات في أواخر القرن السادس الهجري؛ أهمها رحلته الأولى التي استغرقت أكثر من سنتين، سجّل خلالها كلّ ما مرّ به من مدن، وما شاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع، والأحوال السياسية والاجتماعية، وعني عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الصحابة ومناسك الحج، ومجالس الوعظ والمستشفيات والمارستانات، ووصف كذلك الكنائس والمعابد والقلاع والعواصف البحرية، وما كابده المسافرون من ضيق وذعر، وذكر الحروب التي كانت دائرة في الشرق بين المسلمين والصليبيين، وما كان عليه الأهالي مسلمون ونصارى من علاقات حسنة خلال تلك الحروب. ووصفه لكلّ ذلك دقيق مسهب يدلّ على دقّة ملاحظته وسعة علمه(٥٧).

وقد كتب هذه الرحلة على شكل مذكرات يومية، استخدم فيها

---

(٥٥) محمد عبد الغني حسن، مرجع سابق. ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٥٦) سيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق. ص٢١٩.

(٥٧) ابن جُبير: أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م). رحلة ابن جُبير، بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م). مقدمة الناشر. ص ٥-٦.

التاريخين الهجري والميلادي، وعني بتسجيل الجوانب الدينية والعقدية وكذا الاجتماعية بأسلوب يتدفق بالحيوية والسلاسة(٥٨).

ويذكر كراتشكوفسكي أن هذه الرحلة التي يسميها " رحلة الكناني" تعدُّ من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي، وأن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير، وأنه كثيرًا ما يلجأ إلى السجع الذي يعالجه بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير، ويختم كراتشكوفسكي حديثه بقوله:" فهذا مصنف رفيع الأسلوب يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر"(٥٩).

> **يذكر كراتشكوفسكي أن هذه الرحلة التي يسميها " رحلة الكناني" تعدُّ من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي**

وتعد هذه الرحلة ـ بحق ـ من أفضل نماذج رحلات المغاربة لأصالتها، وصدقها، وبساطة أسلوبها، ولما كانت على شكل مذكرات يومية، فإن المعلومات التي تأتي بها تتبع خط الرحلة، وأهم ما يميزها الملاحظة الدقيقة لكثير من مظاهر الحياة، والمقارنة بين ما يراه وما يجد له نظيرًا في موطنه(٦٠).

وكانت مصادر ابن جبير في تأليف رحلته هي المشاهدة والملاحظة ؛ إذ إن لديه قدرة فذة على لحظ كل ما تقع عليه عينه، وإيراد ما يجده جديدًا أو غير مألوف(٦١).

---

(٥٨) محمد مؤنس عوض، مرجع سابق. ص ٢٨٥.

(٥٩) أغناطيوس كراتشكوفسكي، مرجع سابق. ص٣٠١.

(٦٠) نوال بنت محمد بن عبد الله. العمران في الشرق العربي في القرن السادس الهجري: قراءة في رحلة ابن جُبير، بحث ضمن بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، المجلد الثالث ، مركز البحوث، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. ص ٣٧٥.

(٦١) محمد مؤنس عوض، مرجع سابق. ص٢٨٦.

ويلحظ أن مقدار المشاهدة والملاحظة تتفوق بشكل واضح في رحلته ولاسيما عن بلاد الشام، وهو لا ينقل عن رحالة آخرين أو يقدم نصوصًا للسابقين، وإنما يقدم رؤيته الشخصية الخاصة به، ومن هنا كانت القيمة المتزايدة لرحلته(٦٢).

فنجد عبارات المشاهدة والمعاينة تتكرر لديه في أكثر من موضع، ويعقبها أحيانًا مقارنة بين ما شاهده وما هو حاصل ببلده من مظاهر أو أسعار أو سلع أو غيرها.

من ذلك تكراره عبارات: "وعاينا فيها"، "ومن أعظم ما شاهدناه"، "وشاهدنا"، "وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته"، "وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال صعدنا إلى جبل ثور لمعاينة الغار"، "ومن أعظم ما شاهدناه"، "ومن أعجب ما شاهدناه"، وغير هذه العبارات التي تتكرر في رحلته ، ويتأكد منها حيوية المصدر وأصالته(٦٣).

٢ - ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

وقد ولد أبو الحسن بن سعيد المغربي بقلعة يحصب من أعمال غرناطة في سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م)، وهي قلعة تعرف بقلعة بني سعيد، وهو متمم كتاب " المغرب في حلى المغرب" الذي جاء ثمرة لجهود أربعة من بيت بني سعيد ، وإليه الفضل في إخراجه بصورته النهائية، وكذا ألّف كتاب: " المشرق في حلى المشرق"، وقد ضمنهما كثيرًا من مشاهداته في البلاد المغربية والمشرقية التي زارها(٦٤).

---

(٦٢) مؤنس، المرجع نفسه. ص ٢٨٦.

(٦٣) ابن جبير، المرجع نفسه، صفحات متكررة منها ص١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ١٣٩، ٢٦٤، ٣١٥.

(٦٤) سيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق. ص ٢٢٢-٢٢٥.

٣ - الرّحالة البلنسي محمد بن محمد بن علي العبدري المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري.

صاحب كتاب " الرحلة المغربية" الذي وصف فيه مشاهداته في مدن المغرب ومصر، وذكر كثيرًا من معالمها وآثارها، واهتم بوجه خاص بالنواحي الاجتماعية والعلمية، وذكر الخصائص البارزة في سكان كل إقليم يمرُّ به(٦٥).

ومن أشهر هؤلاء الرحالة على الإطلاق، وأكثرهم طوافًا في أقطار الأرض الرحالة ابن بطوطة أبو عبدالله محمد بن محمد اللواتي الطنجي (ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) صاحب كتاب "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" المعروف برحلة ابن بطوطة الذي ولد في طنجة عام ٧٠٧هـ (١٣٠٧م) ، أولع منذ صغره بالسفر والترحال ، فقضى ما يزيد عن ثلاثين عامًا من عمره في رحلات متواصلة لمختلف ديار الإسلام، وعُني عناية شديدة بسرد تفصيلات مشاهداته وملحوظاته خلال هذا التجوال(٦٦) ، فجاءت رحلته تسجيلاً حيًا لأحداث ومشاهدات، ووصفًا دقيقًا لما صادفه في الرحلة من مفآجات، وما وقعت عليه عينه من غرائب وملحوظات.

أما البلدانيون فقد برعوا في استخدام هذا المصدر معينًا خصبًا لمعلوماتهم التي أوردوها في كتبهم عن طريق المواقع التي زاروها ووقفوا عليها، فجاءت معاجمهم أشبه بمصادر شاملة لجغرافية البلاد وتاريخها، وواصفة للمواقع وأبعادها وفق منظور دقيق ومعاينة صائبة في أغلب الأحيان.

وقد ازدادت عناية المسلمين منذ أوائل القرن الرابع الهجري بعلم تقويم البلدان ؛ وذلك لكثرة الأسفار والرحلات التي كان يقوم بها

---

(٦٥) سيد عبد العزيز سالم، المرجع نفسه. ص ٢٢٥-٢٢٨.

(٦٦) سيد عبد العزيز سالم، المرجع نفسه. ص ٢٣٢.

التجار وأهل العلم بقصد التجارة أو طلب العلم، أو لمجرد الرغبة في المشاهدة والمعاينة أو حبًا للمغامرة أو للحج إلى مكة، فكثرت المؤلفات البلدانية التي تعنى بالمعلومات والبيانات الوصفية للأقاليم والمواقع التي مروا بها، فكوّنت تلك الكتابات مصادر مهمة ضمن المصادر التاريخية المتعددة.

وقد برز جمع كبير من العلماء البلدانيين في استخدام هذا المصدر أداة لجمع معلوماتهم كان من أشهرهم:

١ ـ **اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)** في كتابه "البلدان"، وقد تضمن معلومات مهمة عن البلاد التي زارها، ووصف ما مرّ به وصفًا دقيقًا، وقد حرص أيضًا على تدوين ملحوظاته عن المجتمعات التي تعرّف عليها، وتواريخ الأسر الحاكمة(٦٧).

٢ ـ **أبو القاسم بن حوقل (ت٣٦٧هـ/٩٧٨م)** في كتابه "صورة الأرض"؛ إذ يشير موافي أن كثيرًا من موارد ابن حوقل في هذا الكتاب ومما سكت عن إسناده يندرج تحت إطار المشاهدة والمعاينة(٦٨). وقد أكد ابن حوقل على ذلك بنفسه في مواضع كثيرة، منها قوله: "وسآتي بما رأيته منهم معاينة ومشاهدة"(٦٩). وقال أيضًا : "وسائر ما وصلته من أخباره، وقصصته من أنبائه وآثاره فبالمشاهدة مني لذلك، والمعاينة لأشكاله"(٧٠). وقال أيضًا: " وهذه جملة أحوال المدن المشهورة، والمراسي والقرى المعروفة

---

(٦٧) سيد عبد العزيز سالم، المرجع نفسه. ص ١٨٦.

(٦٨) ناصر عبد الرزاق موافي. الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. القاهرة: دارالنشر للجامعات المصرية ، ١٤١٥هـ(١٩٩٥م). ص١٦٤.

(٦٩) ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، (ت٣٦٧هـ/٩٧٨م). صورة الأرض، ط٢، ليدن بريل، (١٣٥٨هـ). ص٥١.

(٧٠) صورة الأرض. ص١٧٠.

على نحو بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط، مما انتهيت إليه ، وأدركته بالعيان، أو أخذته عمن نشأ فيه"(٧١). وهذا تأكيد على اهتمامه بهذا المنهج في نقل الأخبار التاريخية وتدوينها.

٣ - **ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)**، الذي كان أبرز هؤلاء البلدانيين؛ إذ طاف أنحاء واسعة من هذه المعمورة، ومرَّ بكثير من البلاد، فكتب عن مظاهر الحياة فيها وعن شعوبها وحكامها، وأمدَّنا بصور حية عن جوانب عديدة شاهدها بنفسه ولمسها خلال رحلاته أو مقامه في كثير من تلك البلاد، فتمكن من تسجيل هذا الكتاب "معجم البلدان" وجمعه، الذي يعد بحق وثيقة تاريخية مهمة لما يحويه من مادة علمية قيمة وغزيرة رصدها شاهد عيان دقيق الملاحظة واضح العبارة عميقها.

وقد سجل ياقوت في معجمه تاريخ عصره تسجيلاً دقيقًا كما رآه وشاهده، وكتب عن العصور السابقة معتمدًا على المراجع وكتب السابقين وأقوال الرواة، وهو يعرض مادته العلمية بالأسلوب الذي يلائمها مع التصوير الدقيق بلا تكرار أو غموض.

وأثبت مشاهداته في الأماكن التي رحل إليها ومرَّ بها، فكتب عن واقعها الجغرافي من حيث العمران والمجتمع والزراعة والصناعة، كما قدم لنا شيئًا عن حضارتها، فأشار إلى آثارها، وعجائبها، ولم تقتصر فائدة رحلاته على هذا الجانب، إنما امتدت لتكون موردًا عن بعض الشخصيات من العلماء والأدباء والفضلاء الذين التقى بهم ، وتتلمذ على بعضهم ، بالإضافة إلى ذكره مراكز العلم والثقافة من المدارس والمكتبات(٧٢). وهذا ما تميز به ياقوت في معجمه عن سائر المعاجم

---

(٧١) صورة الأرض. ص، ٨٣.

(٧٢) يوسف بن عبدالعزيز الحميدي. ياقوت الحموي مؤرخًا من خلال كتابه معجم البلدان، رسالة ماجستير غير منشورة، مكة المكرمة : جامعة أم القرى، ١٤١٨هـ (١٩٩٨م). ص١٩٣.

وعن كتب الرّحالة، وذلك أنه لم يقف عند حدود وصف المواقع، وما صادفه فيها من أخبار وأحداث أو انطباعات.

من ذلك وصفه لنهر جيحون (اسم وادٍ في خراسان)، وقد تعجب من تجمد الماء فيه، ووصف ذلك بقوله: " وقد شاهدته، وركبت فيه، ورأيته جامدًا، وكيفية جموده أنه إذا اشتد البرد وقوى كَلَبُه جمد أولاً قطعًا، ثم تسري تلك القطع على وجه الماء ، فكلما ماسَّت واحدة الأخرى التصقت بها، ولا تزال تعظم حتى يعود جيحون كله قطعة واحدة، ولا يزال ذلك الجامد يثخن؛ حتى يصير ثخنه نحو خمسة أشبار وباقي الماء تحته جار، فيحفر أهل خوارزم فيه آبارًا بالمعاول حتى يخرقوه إلى الماء الجاري، ثم يستقوا منه الماء لشربهم، ويحملوه في الجرار إلى منازلهم... فإذا استحكم جمود هذا النهر عبرت عليه القوافل والعجل بالبقر، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق حتى رأيت الغبار يتطاير عليه كما يكون في البوادي "(٧٣).

وقد كان لتلك الرحلات أثر مهم في المادة التاريخية التي سجلها في كتابه "معجم البلدان"؛ إذ شكلت موردًا لحديثه عن كثير من الأحداث التي عاصرها. وكتابة ياقوت عن هذه الأحداث لها قيمة تاريخية متميزة لكونها صدرت عن شخص عاصرها وشهد بعضها فتدوينه لها كان عن قرب. وأوضح مثال لهذا حديثه عن بعض أحداث الحروب الصليبية وجانب من غزو التتار للعالم الإسلامي.

فقد تبين من خلال قراءة مرويات ياقوت أنه لم يستغن في روايته لأخبار الحروب الصليبية، وبعض أخبار المغول بما كُتِبَ عنها عند عدد من المؤرخين المعاصرين كالعماد الأصفهاني أو البنداري أو ابن الأثير أو بهاء الدين بن شداد، وإنما استطاع أن يسجل كثيرًا من معلوماته من خلال معايشته لهذه الأحداث ووقوفه ومعاينته لها.

---

(٧٣) ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله ، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م). معجم البلدان، ط٢. بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م). ٢/١٩٧.

يتأكد ذلك من الرسالة التي بعثها ياقوت إلى القفطي حين خرج من مرو وخوارزم قادمًا إلى العراق فالشام، وأورد ياقوت نصها، وفيها يصف الحال التي كان عليها حين خروجه خوفًا من التتار، وأنه" مرّ بين سيوف مسلولة وعساكر مغلولة ونظم محلولة ودماء مسكوبة مطلولة"(٧٤).

كما أن ياقوتًا لم يكتف بالنقل من الكتب عن بناء المدن والآثار، وما قيل عن بعضها، بل أراد أن يتحقق بنفسه في أثناء زياراته التي قام بها إلى بعض منها؛ من ذلك زيارته إلى مصر وتعجبه من بناء الأهرامات، وأدرك أن وصفها بالكتب ليس كالمشاهدة، فقال عنها: "وما سمعت بشيء تعظم عمارته فجئته إلا ورأيته دون صفته إلا الهرمين؛ فإن رؤيتهما أعظم من صفتهما"(٧٥).

وفي المقابل زار الإسكندرية وشاهد منارتها التي تعد إحدى عجائب الدنيا، وكذَّب الأخبار التاريخية التي فيها التهويل والأساطير عن بنائها؛ إذ قال: "ولقد شاهدتها في جماعة من العلماء ، وكل عاد منا متعجبًا من تخرص الرواة، وهي بنية مربعة شبيهة بالحصن والصومعة مثل سائر الأبنية"(٧٦). وأكد ذلك برسم شكل المنارة ، بالإضافة إلى وصفها من حيث الموقع والعرض والطول(٧٧).

وهنا أشير أيضًا إلى أن ما ورد عند ياقوت الحموي من مادة علمية حواها كتابه المعجم مما يندرج ضمن هذا المنهج يمكن أن

---

(٧٤) القفطي: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف ، (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م). إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار الفكر العربي، بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م). ٩٠/٤.

(٧٥) ياقوت، المعجم. ٣١٢/١.

(٧٦) المصدر نفسه. ١٦٤/٥.

(٧٧) المصدر نفسه. ٢٢٢/١.

ينطبق بصورة صادقة وبشكل أوضح على المناطق التي زارها ياقوت، ووقف عليها مباشرة، وشاهد آثارها، ووقف على أطلالها، أما ماورد في المعجم من أخبار عن مناطق أخرى لم يتمكن من زيارتها مثل معظم ما ورد عن الجزيرة العربية وبخاصة وسطها وشرقها وجنوبها فلا ينطبق عليه هذا الوصف، بل هو نقل عن مصادر سابقة تصف حال هذه البلاد قبل عصر ياقوت بقرون عدة.

كما أنه يشار هنا إلى أنَّ الرواية الشفوية أو ما يعرف بالتاريخ الشفهي يمكن أن تندرج في بعض جوانبها ضمن منهج المشاهدة والمعاينة، وقد تصدر ممن شارك في الأحداث فيرويها إلى من يسجلها ضمن الروايات التاريخية الموثوقة.

وهذا المصدر من أبرز سمات الفكر المنهجي عند المسلمين وبخاصة عند علماء الحديث الذين جعلوا الرواية الشفهية في مقدمة مصادر التلقي، ومعلوم مدى تأثر علم التاريخ في بداياته بقواعد علم الحديث وأصوله عند المسلمين.

فكانت الأخبار التاريخية تروى أول الأمر مشافهة، وكان يرويها أصحابها عن الذين شاهدوها وشاركوا فيها أو يروونها عن رواة آخرين اتصلوا بأصولها الأولى عن طريق المعاصرة، ثم جاء جيل يدوّن الأخبار الشفوية في رسائل على هيئة كتب، فتحولت الأخبار الشفوية إلى أخبار ورسائل مدونة(٧٨).

وقد اتبع هؤلاء طريقة الإسناد بالعنعنة على طريقة أصحاب الحديث، وكثرت لدى أصحاب الوفيات وكتب الطبقات، كما فعل ابن سعد في طبقاته، والخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد"، وابن خلكان في "وفيات الأعيان"، والذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام"، وغيرهم ممن يطول حصرهم هنا(٧٩).

---

(٧٨) عبد العليم خضر، مرجع سابق. ص١٧٨-١٧٩.

(٧٩) المرجع نفسه. ص ٢٢٠ - ٢٢١.

ويمكن الإشارة إلى أبرز أساليب هذا المنهج نحو قول المؤرخين: "قال لنا شيخنا" ، "ذكر لي شيخي" ، "أخبرني ولده" ، "أخبرني غير واحد"، "وسمعت جماعة من مشايخي يقولون" ، "ذكر لي فلان" ، أو "أخبرني فلان"، ونحو ذلك من الأمثلة التي تتكرر عند المؤرخين، وبخاصة كتَّاب التراجم والوفيات والطبقات.

أما في كتب التراجم والطبقات فيتحدد هذا المصدر في العديد من اللقاءات والمقابلات التي يجريها المؤلف مع من يترجم لهم من الأعلام فينعتهم أحيانًا، ويورد عبارات تفيد معنى المقابلة والملازمة أحيان أخرى، وقد يشير إلى مناقشته لبعض الشيوخ الذين ترجم لهم أو رافقهم أو سمع منهم أو سمعوا منه، وهو أيضًا مصدر مهم في ترجمة أولئك الأعلام، تكرر استخدامه في عدد من كتب التراجم المهمّة منها: "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي ، "وتاريخ دمشق" للحافظ ابن عساكر، "وخريدة القصر" للعماد الأصفهاني، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي، والقفطي في "إنباه الرواة"، وابن أبي أصيبعة في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، وغيرها كثير من كتب التراجم والطبقات.

وما تزال المشاهدة مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ في حاضره كما هي عليه في ماضيه، فحينما كتب المؤرخ المعاصر محمد عبدالله عنان عن معالم الأندلس القديمة في زيارته لها اعتمد هذا المصدر طريقًا لنقل كثير من أخباره، وحين كتب هيكل كتابه "حياة محمد" رأى أن يكمله بالمشاهدة، فكانت زيارته لمكة والمدينة، وجعل مشاهد النبوة موضعًا لكتابه "في منزل الوحي" فربط بين أحداث النبوة، ومشاهده عن مواقعها في إطار رائع من الوصف(٨٠).

كما اعتمد غيرهما من المؤرخين المعاصرين هذه الوسيلة مصدرًا

---

(٨٠) عبد العليم خضر، مرجع سابق. ص٢١٣.

مهمًا من مصادر أخبارهم، فقرنوا ما نقلوه من المصادر من أخبار عن المواقع بالوقوف عليها ومعاينة مسرح تلك الأحداث.

وهنا أشير إلى أنه متى ما توافق لدى المؤرخ عنصر المشاهدة مع المشاركة في الحدث الذي يرويه كان ذلك رصيدًا مهمًا في مصداقية المعلومة التاريخية التي يوردها، وأولوية عرضها ضمن مرويات هذا الحدث، وهذا ما يسمى بذاتية الموارد، باعتبار المؤرخ عنصرًا مشاركًا في أحداثها ومشاهدًا لها عن قرب. ويشار هنا ضمن أهمية هذا المصدر إلى أن المؤرخ لا يكتفي أحيانًا بإثبات مشاهداته للحدث أو مشاركته فيه، وما يصاحب ذلك من إثارة وتعجب، وإنما يقرن ذلك بما يفسر الحدث والمشهد وفق منظوره وخلفيته عن أحداث مماثلة ، وقد يرجح رأيًا فيه.

فالمشاهدة والمعاينة إذًا تعد مصدرًا مهمًا من مصادر التدوين التاريخي عند المؤرخين ؛ إذ تحتوي المعلومات التاريخية التي تعتمد هذا المصدر على معلومات ذات قدر كبير من الأهمية، وتعد في الغالب من أوثق المصادر وأدقها؛ إذ تعد تصويرًا واقعيًا لأحداث العصر بطريقة شيقة موثوقة في غالبها.

إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذا المصدر لابد أن يقابل بتأن وحذر، وهذا دور المؤرخ الواعي لما يقرأ، فلا بد من تطبيق المنهج التاريخي في تلقي الأخبار واعتمادها سواءً كان موردها مؤرخين أم بلدانيين أم غيرهم ؛ إذ إن هذا المصدر له مؤثرات خارجية تحدد مدى مصداقية التدوين عن طريقة، كما يحيط به ظروف وحالات تحدد مصداقيته، فلا بد أن تؤخذ هذه الأمور في الحسبان حين تقويم هذا المصدر عن أي من المؤرخين أو غيرهم ومدى اعتمادها وسيلة صادقة وأمينة لتدوين الرواية.

كما يشار هنا أيضًا إلى أن عدد المؤرخين المسلمين الذين

اعتمدوا هذا الأسلوب في إيراد معلوماتهم التاريخية قلة قليلة قد لا يتناسب مع الكم الهائل من المؤرخين الذين خلفوا لنا تراثًا تاريخيًا ضخمًا ، وهم يعتمدون في غالب مروياتهم على النقل من المصادر أو الروايات التي قد تتضارب وتتعارض في الحالة الواحدة مما يوقع القارئ في حيرة من أمره(٨١).

وأخيرًا فإنه إذا كان ثمة توصية بشأن الموضوع فهي التوكيد على أهمية هذا المصدر، وحاجة المؤرخ الماسة إليه في استقراء مرويات تاريخنا. ويمكن أن يتم ذلك عن طريق توجيه الدراسات الحديثة إلى استخلاص روايات المؤرخين التي تعتمد هذا المصدر أساسًا لمروياتها، والعمل على إفرادها وتخصيصها بدراسات مستقلة مع إجراء الموازنات اللازمة لذلك.

آملاً أن تكون هذه الدراسة نواة لدراسات أشمل وأعم في مثل هذه الجوانب وضمن هذه المصادر وأمثالها. وأسأل المولى القدير أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم، آمين.

---

(٨١) محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق. ص ٥٧ ـ ٥٨.